# لماذا اختار الأديب المغربي كتابة الرواية ؟

عبد الفتاح الحجمري

لا يعتبر هذا التحليل إحاطة شاملة بمجمل القضايا التي تخص الخطاب الروائي المغربي من حيث النشأة والتطور، بل إنه وصف جزئي.* إننا في مثل هذه التحاليل التي تتوخى تقييم الحصيلة وربما استشراف آفاق المستقبل، مطالبون بوضع احتراسات نظرية ومنهجية وتحليلية تهم، في الإجمال، تصور الأديب وتحقق الأنواع الأدبية وتعبيراتها النصية المتنوعة والمتعددة.

لاشك أن هناك مرجعية سوسيوثقافية وتاريخية عامة يصدر عنها فهم الأدب والحاجة إلى النوع الأدبي وكذا أشكال التعبير التي تستدعيها أبنية ودلالات النصوص وما يحفز على كتابتها. وعلى هذا الأساس لا يمكن حصر هذه التوصيات العامة انطلاقا من نصوص منعزلة أو مفردة، مثلما لا يمكن اختزالها في مجرد تقنيات توضح وتبرز أنماط صياغة الحكاية وأساليبها المختلفة.

أفترض أن أي حديث عن تصور ما للأدب أو وصف لمبررات الحاجة إلى النوع الأدبي وتداول أشكال التعبير وما ينتج عنها من خطابات نصية ممكنة ينفتح على مساءلة التصورات المرافقة لكتابة تاريخ الأدب والنوع الأدبي، بموازاة مساءلة خلفية التلقي النصي الخاصة والمشتركة : متى نؤرخ لنوع أدبي، وبحسب أية مقاصد نهتم بوضعية التلقي الأدبي ووسائطه؟

يبدو اليوم أن النظرية الأدبية لم تحسم الأمر بعد. ولذلك، فهي تطور وعيها باستمرار كلما ظهرت الحاجة إلى تجديد علاقة النصوص الأدبية باللغة الواصفة التي تقاربها، وكلما أضحى الحديث ممكنا عن تعميق البحث حول وظيفة الكتابة وقدرتها على إنتاج متخيل اجتماعي يتعدى نطاق جعل الأدب صورة من الواقع.

إن الفكرة التي أود إثارتها تطرح للاختبار تلك الحاجة " الثقافية والاجتماعية" التي تسمح لكتابة ما أن تتخذ مظهرا نصيا معينا يجلي وظيفة أدبية واجتماعية تعني أن وعيا ثقافيا وفكريا هو بصدد التبلور والبروز في آثار ترقى من مستوى النص المفرد إلى مستوى أعم توفره نصوص متعددة

يسهل (وربما يصعب ذلك ) تصنيف أنواعها بما يوافق الذوق الأدبي ومقتضيات المؤسسة الأدبية. وهذا، في نظري، ما يجعل أي حديث عن النشأة محفوفا بالعديد من المزالق النظرية والمنهجية أحصرها هنا ضمن إمكانات بحث :

- المبررات الكامنة وراء تطلع المجتمع لقبول شكل أدبي معين يناسب تطور حركة التاريخ الأدبي.
- اقتران هذا التناسب مع تلازم يخص الكتابة والتصور الذي يمنحه إياها هذا المؤلف أو ذاك، وهو تصور أفترض أنه يخلصها- في جميع الأحوال- من فرق الأنواع الأدبية.

سأترك هذا الحديث التعميمي لحظة وسأبين بصورة مجملة المحور الذي أقترحه للتحليل انطلاقا من السؤال العام : لماذا اختار الأديب المغربي كتابة الرواية ؟ وما السبيل إلى معرفة الدوافع الاجتماعية والسياسية والثقافية التي رافقت الوعي بجدوى التخييل السردي وتصنيفات أنواعه وألوانه ؟

يبدو من الصعب الإجابة على هذا السؤال، لأن تركيز التحليل على بحث تصورات الكتابة بإمكانه أن يستوحي صلاتها الممكنة بالشرط الاجتماعي والضرورة الثقافية المماثلة له، مثلما بإمكانه أيضا أن يعيد تأمل كيفية تعلق المتخيل بالواقع وإثبات حدود المرجع أوالمحاكاة. وبالرغم من ذلك، سيبقى تصور الكتابة جزئيا ما لم يكشف عن الأشكال الفنية والتعبيرية باعتبارها سمات مميزة للنصوص ولدور الأدب على نحو عام. وهذا إجراء يحتاج إلى منظور آخر في المقاربة يهم تاريخ الأدب وسوسيولوجيا الأدب ونظرية التلقي الأدبي.

من أجل توضيح ما سلف، أقترح تأمل هذه اللحظات :

**1 - لحظة شبه -روائية**

تعتبر العديد من الدراسات والبيبليوغرافيات أن نص " الزاوية " ( 1942) للتهامي الوزاني الانطلاقة الأولى لكتابة سرد أدبي روائي بالمغرب. سرد أدبي يتميز بجملة من الخصائص النصية والحكائية الحاملة لرؤية خاصة للذات والعالم الذي تحيا فيه : طفولة، مجتمع، معتقد. معنى هذا أن أهم ما سيقدمه نص " الزاوية " هو تصور معين للكتابة متصل بوظيفة ذاتية واجتماعية مبثوثة في ثنايا الكتاب تجعل قراءته مقترنة ومفسرة لتلك الحاجة إلى سرد أدبي غير خاضع لمعايير النوع، في الوقت الذي تمتلك فيه القدرة على الانتقاد أو النزوع نحو الترميز وابتكار العجيب.

في اقتران بما سبق، يصبح نص " الزاوية " للتهامي الوزاني منتميا لمرحلة " ماقبل-روائية" أو "شبه-روائية " تستدعي التأريخ للذات أو للأنا وإعلان مسارات حياتية خاصة كالتربية والتعليم والعائلة، وكذا التعريف بعالم الزاوية الحراقية ومراتب الشرفاء والمريدين وأنواع الكرامات وعماد

وسلوك الصوفية. هكذا استطاع التهامي الوزاني بنصه الفريد أن يضع تأريخه للذات في ملتقى كتابة سردية منفتحة على أخبار المجتمع والتاريخ ومرويات الأدباء والأولياء مع خصوبة جلية من التخييل في تشخيص بعض وقائع الحياة. وإذا كان الوزاني في زاويته يتخذ مما سبق حافزا لكتابة سرد ذاتي، فإنه في نص آخر " سليل الثقلين " ( 1949) سيفتح السرد على عوالم الخرافة والخارق حين سيبتكر حكاية بطلها " بهزاد" والعفريت " صفريت". ولذلك يحتضن المنطق العام لهذه الخرافة أجواء الجن والإنس وما تستدعيه من أبعاد رمزية ذات غايات تشتغل بإعادة تمثل المتخيل السردي العربي كما تجليه "ألف ليلة وليلة "على نحو خاص.

أستخلص من هذه اللحظة الشبه -روائية اعتماد الكتابة السردية على استرجاع تاريخ للأنا يلحق تحقيبه للتجربة الفردية بأوضاع التجربة الجماعية، أو اعتمادها على ارتياد أجواء حكاية خرافية عجيبة وغريبة ذات أبعاد فلسفية.

وتلفت نظر الباحث، في هذا الإطار، كتابات سردية مغربية راهن أصحابها على تدوين تواريخهم الشخصية أو الغيرية وخبرتهم في الحياة والمجتمع اتخذت أحيانا شكل الفهارس أو المذكرات، وشكل التراجم والمقامات والرسائل والرحلات أحيانا أخرى؛ بعضها كان يضمن سرده فسحا من التخييل ظلت محافظة - في الغالب الأعم وبحكم ثقافة صاحبها- على المنظور الديني والموروث الحكائي والشفوي مما حرر هذا النمط من الكتابة النثرية من رتابة الأساليب العتيقة وقيود الصنعة والصياغة الموروثة. وأحيل هنا على كتابي " الرحلة المراكشية أو مرآة المساوئ الوقيتية" ( 1939) و"أصحاب السفينة " (1935) لمحمد بن عبد الله المؤقت المراكشي.

يميل الفقيه المتأدب عبد الله المراكشي في كتابته النثرية إلى استثمار الرحلة المتخيلة ورمزية الأحلام في ابتكاره لأسلوب جديد ييسر له انتقاد القيم الفاسدة في المجتمع المغربي آنئذ، واعتماد خطاب إصلاحي ذي امتدادات دينية وحكائية شعبية تحفل بالعجائبي والغرائبي، وكلها صيغ نثرية وسردية أتاحت للمراكشي إعادة تخيل الواقع بغاية محاربة الأخلاق الفاسدة وإشاعة النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة البدع.

### 2- لحظة تاريخية- سيرية

عادة ما يقيم النص الأدبي علاقة إحالية أو تخييلية مع العالم المرجعي، سواء تعلق الأمر بتمثل سيرة الذات أو وصف مظاهر الحياة اليومية وعادات وسلوك الأفراد. من هذه المسلمة التي يمكن سحبها على بعض الكتابات السردية لسنوات الأربعين والخمسين، يظهر بوضوح تعلق تلك الكتابة بشكلين

سرديين متمايزين : السرد التاريخي والسرد السيرذاتي. نمثل للنوع الأول بالروايات التاريخة القصيرة التي كتبها عبد العزيز بن عبد الله وجمعها تحت عنوان : " شقراءالريف " ( 1973) ومنها : " الجاسوسة السمراء " و" غادة أصيلا" و" الجاسوسة المقنعة ". وإذا كانت هذه النصوص تنظم مسارات الحكاية عبر استلهام قصة غرامية وأخرى تاريخية على غرار روايات جورجي زيدان، فإن تصورها للكتابة لم يكن يفتح التخييل فقط على حقائق التاريخ كما هو الحال مثلا في قصة " غادة أصيلا" التي تستحضر أجواء معركة وادي المخازن، بل إنه تصور يتخذ من أمجاد الماضي سبيلا لتعميق الحس الوطني وتجاوز هزائم الحاضر، وإن كان الوعي بالكتابة داخل دائرة نوع معين لم تكن واضحة أو محددة، فعبد العزيز بن عبد الله يسمي كتابته قصصا وروايات وقالبا قصصيا في ذات الآن. لقد كتبت هذه الروايات في فترة انتقلت فيها الحركة الوطنية من مرحلة الإصلاحات إلى المطالبة بالاستقلال خاصة بعد الحرب العالمية الثانية. (1)

موازاة ذلك تأتي رواية " وزير غرناطة " لعبد الهادي بوطالب لتقرب الشكل السردي من كتابة سيرة غيرية متعلقة بسجلات وقائع تاريخية تفتح الأفق الروائي على تمثل سيرة لسان الدين بن الخطيب الملقب بذي الوزارتين وهو الذي عاش أدق لحظات حكم بني الأحمر بالأندلس واغتيل وأحرق جثمانه بعدما اتهم بالخروج عن الدين. كما تهتم الرواية بوصف أحداث اجتماعية وسياسية عرفها التاريخ العربي الإسلامي بالأندلس والمغرب خلال فترة معلومة تميزت بالضعف والتفكك والتنافس على السلطة وإدارة الحكم. يتجلى من هذا أن قصد الكتابة ووظيفة سردها التخييلي بإحالته على المنظور البيبليوغرافي والتاريخي، إنما يود اتخاذ العبرة من الماضي ( سقوط الأندلس) من أجل ترسيخ الإيمان بقيم جديدة يستدعيها حاضر يتطلب مواجهة الاستعمار وهزمه والدفاع عن الهوية والتشبث بها. هكذا تغدو السيرة الغيرية ويغدو التاريخ الاجتماعي والسياسي أحد الروافد التي تقود إلى كتابة سرد تخييلي يصاغ انطلاقا من رؤية خاصة للماضي والحاضر أيضا.

### 3- لحظة سيرية-روائية

يمكن القول إن مسار الرواية المغربية سيتخذ من السيرة الذاتية شكلا مهيمنا للتعبير عن علاقة الفرد بالمجتمع ومحاولة الإمساك بتجارب الأنا في الزمان والمكان. ستصبح هوية الأنا موضوعا لسرد ذاتي يستعيد عوالم الطفولة واليومي والمألوف والعابر. ويقدم لنا نص " في الطفولة " لعبد المجيد بن جلون مثالا واضحا وحاسما على تطابق الذات الساردة مع ذات المؤلف الواقعي والفعلي، وتقديم مادة سردية تعبر عن مصير الأنا بموازاة مصيرالمجتمع ذاته. وهذا ما يدفع إلى التساؤل : ما هي الدواعي التي

اختار بموجبها بن جلون كتابة طفولته آنئذ ؟ وكيف السبيل إلى معرفة " المرجعية الثقافية والأدبية " التي أقنعت المؤلف بكتابة سيرته الذاتية ؟

لا أقصد من وراء هذا السؤال عرض حوافز الكتابة. فهذه مسألة شخصية فطن إليها عبد المجيد بن جلون بذكاء حين أكد في نهاية سيرته : " أبادر إلى القول بأن الموضوع الشخصي ليس هو الذي يجب أن ينظر إليه القارئ على أنه مهم في هذه الفصول "، وكأني به يدفع القارئ إلى اعتبار سرده الذاتي دعوة للتفكير في قيم اجتماعية وثقافية ممتدة في الذاكرة والوجدان المشترك، أي أنه سرد متولد عن إحساس (ورغبة كذلك ) في إيجاد توازن مطلوب بين الذات والعالم. إن نص " في الطفولة" لا يستعيد حياة عادية أو استثنائية، بل إنه نص يعيد بناء هوية فردية ووطنية ساهم في توليدها إقامة بن جلون في البلاد الانجليزية منذ طفولته المبكرة. هكذا كان الوعي بصورة الأنا والآخر لدى بن جلون مرادفا لجدوى كتابة سيرة ذاتية تقرن الكينونة بالهوية والخصوصي بالكوني.

ومنذ هذه اللحظة وصعدا سيحظى هذا الميثاق الأتوبيوغرافي بالأهمية في صياغة المتخيل السردي، بل إنه ميثاق يعقد الصلة بالميثاق الروائي وكأن السيرة الذاتية طريق تؤدي إلى عالم الرواية أو إلي عالم السيرة الروائية. وبهذا المعنى تعتبر بعض الدراسات نص " دفنا الماضي " لعبد الكريم غلاب تأليفا روائيا يدشن لوعي أدبي متطور على صعيد الكتابة واختيار الشكل الفني الملائم للتعبير عن حالات اجتماعية وتجارب إنسانية معينة.

قبل " دفنا الماضي " احتفظ لنا التاريخ الأدبي بنصوص متفاوتة من ناحية الجودة الفنية، ولأن موقعها ذا صلة بفرضية قراءة تعاقبية ممكنة، فإنها نصوص ساهمت، رغم ذلك، في تعميق الوعي بقيمة كتابة سردية أضحت لازمة لمواكبة حاجات المجتمع والأفراد. ونذكر من هذه النصوص : " إنها الحياة " (1963) لإسماعيل البوعناني، " سبعة أبواب" ( 1965) لعبد الكريم غلاب، " أمطار الرحمة " (1965) لعبد الرحمان المريني، " بوتقة الحياة" (1966) لأحمد البكري السباعي.

ويستمد نص " دفنا الماضي " أهميته من توجيه أفق التخييل نحو بناء حكاية لا تظهر فقط صراع الفرد مع تقاليد مجتمعه، ولكنها حكاية تتخذ من عائلة " الحاج محمد التهامي " الموسرة والمؤمنة بضرورة الحفاظ على تقاليدها المتوارثة وكما هي متداولة بحي " المخفية " بمدينة فاس العتيقة. وتعطي الحكاية لأبناء التهامي عائشة وعبد العزيز وعبد الرحمان ومحمود دورا أساسيا في تأثيث صورة دالة لصراع آخر بين الأجيال يغذيه من جهة إيمان راسخ بضرورة مواصلة الكفاح الوطني ضد الاستعمار، ومن جهة ثانية إصرار هادف على تجاوز تقاليد الماضي وذهنياته الجامدة.

من هنا قيمة أفق التخييل في نص" دفنا الماضي" وقدرته على نسج حكاية ترصد الاجتماعي والتاريخي والسياسي، أي ترصد علاقة الماضي بالحاضر في حياة أجيال متلاحقة توحد بينها رغبة أكيدة لترسيخ قيم نبيلة أضحت مفتقدة في الواقع والوعي الثقافي. كان هذا الأفق ضروريا لدى غلاب لأيجاد تعبير روائي مناسب شكلا ودلالة.

بالإمكان حصر أهم الاستنتاجات الأولية في ما يلي :

**1-** لحظة شبه-روائية : تهتم برصد تاريخ الأنا وتحقيب التجربة الفردية عبر إلحاقها بالتجربة الجماعية. أو توليد حكاية خرافية مستمدة من المروث الحكائي والشفوي. إنها لحظة تميل نحو تحرير الكتابة النثرية من قيود البلاغة العتيقة والصياغة الأسلوبية الموروثة.

**2-** لحظة تاريخية-سيرية : وتميزت بفتح التخييل على مادة تاريخة ماضية بغاية فهم الحاضر ومواجهة هزائمه. والتاريخ هنا يخص : تاريخ الأمة وتاريخ الأنا. إنها لحظة تعتني بالفكرة وتعيد في الغالب توظيف صيغ سردية جاهزة.

**3-** لحظةسيرية-روائية : يهدف تركيز الكتابة على الذات، في هذه اللحظة، إلى بناء هوية فردية متعلقة بهوية وطنية راسخة في الذاكرة والوجدان. يهدف تركيز الروائي le romanesque توليد أفق تخييلي يتطلع لتجاوز تقاليد الماضي وذهنيات المجتمع الجامدة.

هوامش

* - من أجل تعميق العديد من المعطيات الواردة في الفقرات السابقة يمكن مراجعة :

- أحمد اليبوري : دينامية النص الروائي، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، 1993
- عبد الحميد عقار : الرواية المغاربية،/ تحولات اللغة والخطاب، المدارس، 2000
- أحمد المديني : الكتابة السردية في الأدب المغربي الحديث، المعارف، 2000
- بيبليوغرافيا الفن الروائي بالمغرب، 1930 - 1984، إعداد مصطفى يعلى، آفاق، عدد 3 - 4 1984
- عبد الرحيم العلام : بيبليوغرافيا الرواية المغربية : 1942 - 1999، منشورات اتحاد كتاب المغرب، 2000

الأدب المغربي في أفق 2000 : فهرس الإبداعات والأبحاث 1998 - 1999 ، منشورات الجمعية المغربية للتنسيق بين الباحثين في الآداب المغاربية والمقارنة، دار القرويين، 2000

1- ( راجع أحمد اليبوري : تكون الخطاب الروائي - الرواية المغربية نموذجا، آفاق عدد 3 - 4 1984 ص 18